بنان . ففعلوا كذلك بكيفية لا نعلمها ، فهذا فرع عن طبيعة إدراكنا نحن لطبيعة الملائكة ، ونحن لا نعلم عنها إلا ما علمنا الله . . ولقد وعد الله سبحانه أن يلقي الرعب في قلوب الذين كفروا . فكان ذلك ، ووعده الحق ، ولكنا كذلك لا نعلم كيف كان . فالله هو الذي خلق ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو يحول بين المرء وقلبه ؛ وهو أقرب إليه من حبل الوريد . .

إن البحث التفصيلي في كيفيات هذه الأفعال كلها ليس من الجد الذي هو طابع هذه العقيدة . وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة . . ولكن هذه المباحث صارت من مباحث الفرق الإسلامية ومباحث علم الكلام في العصور المتأخرة ، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية في هذا الدين ، وتسلط الترف العقلي على النفوس والعقول . . وإن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله سبحانه للملائكة في المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة ، لهي أنفع وأجدى . .

وفي نهاية هذا الاستعراض ، وفي أعقاب المشهد الهائل الذي تتجلى فيه تلك الحقيقة الهائلة ، يجيء التقرير الموضح لما وراء المعركة كلها . ووراء النصر فيها والهزيمة ، من قاعدة ودستور لمجرى هذه الأمور :

« ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » . .

إنها ليست فلتة عارضة ، ولا مصادفة عابرة ، أن ينصر الله العصبة المسلمة ، وأن يسلط على أعدائها الرعب والملائكة مع العصبة المسلمة . . إنما ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله ، فاتخذوا لهم شقاً غير شق الله ورسوله ، وصفا غير صف الله ورسوله . ووقفوا موقف الخلف والمشاقة هذا يصدون عن سبيل الله ، ويحولون دون منهج الله للحياة .

« ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » . .

ينزل عقابه الشديد على الذين يشاقونه ويشاقون رسوله . وهو قادر على عقابهم وهم أضعف من أن يقفوا لعقابه . .

قاعدة وسنة . لا فلتة ولا مصادفة . قاعدة وسنة أنه حيثما انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهية الله وحده ، وإقامة منهج الله وحده ، ثم وقف منها عدوّها موقف المشاقة لله ورسوله ، كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة ، وكان الرعب والهزيمة للذين يشاقون الله ورسوله . ما استقامت العصبة المسلمة على الطريق ، واطمأنت إلى ربها ، وتوكلت عليه وحده ، وهي تقطع الطريق .

وفي نهاية المشهد يتوجه بالخطاب إلى أولئك الذين شاقوا الله ورسوله . . إن هذا الذي حل بكم في الدنيا من الرعب والهزيمة ليس نهاية المطاف . فأمر هذا الدين والحركة به والوقوف في طريقه ، ليس أمر هذه الأرض وحدها ، ولا أمر هذه الحياة الدنيا بمفردها . . إنه أمر ممتد إلى ما وراء هذه الأرض ، وإلى ما بعد هذه الحياة . . إن أبعاده تمتد وراء هذه الآماد القريبة :

« ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار » . .

فهذه نهاية المطاف . وهذا هو العذاب الذي لا يقاس إليه ما ذقتم من الرعب والهزيمة ومن الضرب فوق الأعناق ومن ضرب كل بنان !

* * *

والآن . . وقد أعاد عليهم مشاهد الوقعة وملابساتها ، وأراهم يد الله فيها وتدبيره ، وعونه ومدده ،

وعلموا منها أنهم لم يكونوا فيها سوى ستار لقدر الله وقدرته . . الله هو الذي أخرج رسوله من بيته بالحق ـ لم يخرجه بطراً ولا اعتداء ولا طغياناً ـ والله هو الذي اختار لهم إحدى الطائفتين لأمر يريده ، من قطع دابر الكافرين « ليحق الحق ويبطل الباطل ولوكره المجرمون » . . والله هو الذي أمدهم بألف من الملائكة مردفين . . والله هو الذي غشاهم النعاس أمنة منه ، ونزل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به ، ويذهب عنهم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبهم ويثبت به الأقدام . . والله هو الذي أوحى إلى الملائكة ليثبتوا الذين آمنوا ، وألقى في قلوب الذين كفروا الرعب . . والله هو الذي أشرك الملائكة في المعركة وأمرهم أن يضربوا فوق الأعناق وأن يضربوا من المشركين كل بنان . . والله هو الذي غنمهم الغنيمة ورزقهم من فضله بعد أن خرجوا بلا مال ولا ظهر ولا عتاد . .

الآن . . وقد استعرض السياق القرآني هذا كله ، فأعاده حاضراً في قلوبهم ، شاخصاً لأبصارهم . وهو يتضمن صورة من النصر الحاسم الذي لا يستند إلى تدبير بشري ، ولا إلى قوة العدد ولا قوة العدة ؛ إنما يستند إلى تدبير الله وتقديره وعونه ومدده ؛ كما يستند إلى التوكل على الله وحده ، والالتجاء إليه ، والاستغاثة به ، والسير مع تدبيره وتقديره . .

الآن . . وهذا المشهد حاضر في القلوب شاخص للأبصار . . الآن . . وفي أنسب اللحظات لاستجابة القلوب للتوجيه . . الآن يجيء الأمر للذين آمنوا ـ بصفتهم هذه ـ أن يثبتوا إذا لقوا الذين كفروا ؛ وألا يولوهم الأدبار من الهزيمة والفرار ؛ ما دام أن النصر والهزيمة موكولان إلى إرادة فوق إرادة الناس ؛ وإلى أسباب غير الأسباب الظاهرة التي يراها الناس ؛ وما دام أن الله هو الذي يدبر أمر المعركة ـ كما يدبر الأمر كله ـ وهو الذي يقتل الكفار بأيدي المؤمنين ؛ وهو الذي ينجح الرمية حين ترمى ـ وإنما المؤمنون ستار للقدرة يريد الله أن يجعل لهم ثواب الجهاد والبلاء فيه ـ وهو الذي يلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ويوهن تدبيرهم ويذيقهم العذاب في الدنيا والآخرة لأنهم شاقوا الله ورسوله :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره ـ إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة ـ فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير . فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ، إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين » . .

ويبدو في التعبير القرآني شدة في التحذير ؛ وتغليظ في العقوبة ؛ وتهديد بغضب من الله ومأوى في النار :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره ـ إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ـ فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » . .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا واجهتم الذين كفروا « زحفاً » أي متدانين متقاربين متواجهين ؛ فلا تفروا عنهم ، إلا أن يكون ذلك مكيدة حرب ، حيث تختارون موقعاً أحسن ، أو تدبرون خطة أحكم ؛ أو أن يكون ذلك انضماماً إلى فئة أخرى من المسلمين ، أو إلى قواعد المسلمين ، لتعاودوا القتال . . وأن من تولى ، وأعطى العدو دبره يوم الزحف فقد استحق ذلك العقاب : غضباً من الله ومأوى في جهنم . .

وقد وردت بعض الأقوال في اعتبار هذا الحكم خاصاً بأهل بدر ، أو بالقتال الذي يكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاضره . ولكن الجمهور على أنها عامة ، وأن التولي يوم الزحف كبيرة من السبع الموبقات . كما روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله

عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . .

وقد أورد الجصاص في « أحكام القرآن » تفصيلا لا بأس من الإلمام به قال :

« قال الله تعالى : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أومتحيزا إلى فئة » روى أبو نضرة عن أبي سعيد أن ذلك إنما كان يوم بدر . قال أبو نضرة لأنهم لوانحازوا يومئذ لانحازوا إلى المشركين ، ولم يكن يومئذ مسلم غيرهم . . وهذا الذي قاله أبو نضرة ليس بسديد ، لأنه قد كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار ، ولم يأمرهم النبي عليه السلام بالخروج ، ولم يكونوا يرون أنه يكون قتال ، وإنما ظنوا أنها العير ، فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيمن خف معه . فقول أبي نضرة إنه لم يكن هناك مسلم غيرهم وإنهم لوانحازوا ، انحازوا إلى المشركين ، غلط لما وصفنا . . وقد قيل : إنه لم يكن جائزاً لهم الانحياز يومئذ لأنهم كانوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن الانحياز جائزا لهم عنه ، قال الله تعالى : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » : فلم يكن يجوزلهم أن يخذلوا نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وينصرفوا عنه ويسلموه ، وإن كان الله قد تكفل بنصره وعصمه من الناس ، كما قال الله تعالى : « والله يعصمك من الناس » وكان ذلك فرضا عليهم ، قلت أعداؤهم أوكثروا ، وأيضاً فإن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فئة المسلمين يومئذ ، ومن كان بمنحاز عن القتال فإنما كان يجوزله الانحياز على شرط أن يكون انحيازه إلى فئة ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فئتهم يومئذ ، ولم تكن فئة غيره . قال ابن عمر : كنت في جيش ، فحاص الناس حيصة واحدة ورجعنا إلى المدينة ، فقلنا : نحن الفرارون . فقال النبي عليه السلام : « أنا فئتكم » . فمن كان بالبعد من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا انحاز عن الكفار فإنما كان يجوزله الانحياز إلى فئة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإذا كان معهم في القتال لم يكن هناك فئة غيره ينحازون إليه ، فلم يكن يجوزلهم الفرار . وقال الحسن في قوله تعالى : « ومن يولهم يومئذ دبره » قال : شددت على أهل بدر . وقال الله تعالى : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » وذلك لأنهم فروا عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك يوم حنين فروا عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعاقبهم الله على ذلك في قوله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين » . . فهذا كان حكمهم إذا كانوا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل العدو أوكثر ، إذا لم يجد الله فيه شيئا . . وقال الله تعالى في آية أخرى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » وهذا ـ والله أعلم ـ في الحال التي لم يكن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاضرا معهم ، فكان على العشرين أن يقاتلوا المائتين لا يهربوا عنهم ، فإذا كان عدد العدو أكثر من ذلك أباح لهم التحيز إلى فئة من المسلمين فيهم نصرة لمعاودة القتال ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله » فروي عن ابن عباس أنه قال : كتب عليكم ألا يفر واحد من عشرة : ثم قلت : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » ... الآية . فكتب عليكم ألا يفر مئة من مئتين . وقال ابن عباس : إن فر رجل من رجلين فقد فر ، وإن فر من ثلاثة فلم يفر ـ قال الشيخ يعني بقوله : فقد فر : الفرار من الزحف المراد بالآية ، والذي في الآية إيجاب فرض القتال على الواحد لرجلين من الكفار ، فإن زاد عدد الكفار على اثنين فجائز حينئذ للواحد التحيز إلى فئة من المسلمين فيها نصرة ،

فأما إن أراد الفرار ليلحق بقوم من المسلمين لا نصرة معهم فهو من أهل الوعيد المذكور في قوله تعالى : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله » ولذلك قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنا فئة كل مسلم » . وقال عمر بن الخطاب لما بلغه أن أبا عبيد بن مسعود استقتل يوم الجيش حتى قتل ولم ينهزم : « رحم الله أبا عبيد ! لو انحاز إليّ لكنت له فئة » . فلما رجع إليه أصحاب أبي عبيد قال : « أنا فئة لكم » ولم يعنفهم .. وهذا الحكم عندنا (يعني عند الحنفية) ثابت ، ما لم يبلغ عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفا لا يجوز لهم أن ينهزموا عن مثليهم إلا متحرفين لقتال ، وهو أن يصيروا من موضع إلى غيره مكايدين لعدوهم ، ونحو ذلك ، مما لا يكون فيه انصراف عن الحرب ، أو متحيزين إلى فئة من المسلمين يقاتلونهم معهم . فإذا بلغوا اثني عشر ألفاً فإن محمد بن الحسن ذكر أن الجيش إذا بلغوا كذلك فليس لهم أن يفروا من عدوهم ، وإن كثر عددهم ، ولم يذكر خلافا بين أصحابنا فيه (يعني الحنفية) واحتج بحديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله ، أن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « خير الأصحاب أربعة . وخير السرايا أربع مائة . وخير الجيوش أربعة آلاف . ولن يؤتى اثنا عشر ألفا من قلة ولن يغلبوا » وفي بعضها : « ما غلب قوم يبلغون اثني عشر ألفا إذا اجتمعت كلمتهم » . وذكر الطحاوي أن مالكاً سئل ، فقيل له : أيسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله وحكم بغيرها ؟ فقال مالك : إن كان معك اثنا عشر ألفا مثلك لم يسعك التخلف ، وإلا فأنت في سعة من التخلف .. وكان السائل له عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر . وهذا المذهب موافق لما ذكر محمد بن الحسن . والذي روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في اثني عشر ألفا فهو أصل في هذا الباب ، وإن كثر عدد المشركين فغير جائز لهم أن يفروا منهم وإن كانوا أضعافهم لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إذا اجتمعت كلمتهم » . وقد أوجب عليهم بذلك جمع كلمتهم » ... انتهى .

كذلك أورد « ابن العربي » في « أحكام القرآن » تعقيبا على الخلاف في المقصود بهذا الحكم قال :

« اختلف الناس : هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر ، أم عام في الزحوف كلها إلى يوم القيامة ؟

« فروى ابن سعيد الخدري أن ذلك يوم بدر ، لم يكن لهم فئة إلا رسول الله ، وبه قال نافع ، والحسن ، وقتادة ، ويزيد بن حبيب ، والضحاك .

« ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة ؛ وإنما شذ من شذ بخصوص ذلك يوم بدر بقوله : « ومن يولهم يومئذ دبره » فظن قوم أن ذلك إشارة إلى يوم بدر . وليس به . وإنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف .

« والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال ، وانقضاء الحرب ، وذهاب اليوم بما فيه . وقد ثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حسبما قدمناه في الحديث الصحيح أن الكبائر كذا... وعدّ الفرار يوم الزحف . وهذا نص في المسألة يرفع الخلاف ، ويبين الحكم ، وقد نبهنا على النكتة التي وقع الإشكال فيها لمن وقع باختصاصه بيوم بدر » ..

ونحن نأخذ بهذا الذي ذكره ابن العربي من رأي « ابن عباس وسائر العلماء » .. ذلك أن التولي يوم الزحف على إطلاقه يستحق هذا التشديد لضخامة آثاره الحركية من ناحية ؛ ولمساسه بأصل الاعتقاد من ناحية ..

إن قلب المؤمن ينبغي أن يكون راسخا ثابتا لا تهزمه في الأرض قوة ، وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده .. وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة ـ وهو يواجه الخطر ـ فإن هذه الهزة لا يجوز أن

تبلغ أن تكون هزيمة وفرارا . والآجال بيد الله ، فما يجوز أن يولي المؤمن خوفا على الحياة . وليس في هذا تكليف للنفس فوق طاقتها . فالمؤمن إنسان يواجه عدوه إنسانا . فهما من هذه الناحية يقفان على أرض واحدة . ثم يمتاز المؤمن بأنه موصول بالقوة الكبرى التي لا غالب لها . ثم إنه إلى الله إن كان حياً ، وإلى الله إن كتبت له الشهادة . فهو في كل حالة أقوى من خصمه الذي يواجهه وهو يشاق الله ورسوله .. ومن ثم هذا الحكم القاطع :

« ومن يولهم يومئذ دبره ـ إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ـ فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » .

ولا بد أن نقف هنا عند التعبير ذاته ، وما فيه من إيماءات عجيبة : « فلا تولوهم الأدبار » .. « ومن يولهم يومئذ دبره » .. فهو تعبير عن الهزيمة في صورتها الحسية ، مع التقبيح والتشنيع ، والتعريض بإعطاء الأدبار للأعداء ! .. ثم : « فقد باء بغضب من الله » .. فالمهزوم مولٍ ومعه « غضب من الله » يذهب به إلى مأواه : « ومأواه جهنم وبئس المصير » ..

وهكذا تشترك ظلال التعبير مع دلالته في رسم الجو العام ؛ وتثير في الوجدان شعور الاستقباح والاستنكار للتولي يوم الزحف والفرار .

ثم يمضي السياق بعد هذا التحذير من التولي يوم الزحف ؛ ليكشف لهم عن يد الله وهي تدير المعركة من ورائهم ؛ وتقتل لهم أعداءهم ، وترمي لهم وتصيب ... وهم ينالون أجر البلاء لأن الله يريد أن يتفضل عليهم بحسن البلاء ، ليثيبهم عليه من فضله وهو الذي وهبهم إياه :

« فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت ـ إذ رميت ـ ولكن الله رمى . وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا . إن الله سميع عليم » ..

وتذهب الروايات المأثورة إلى تفسير الرمي هنا بأنه رمية الحصى التي حثاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في وجوه الكفار ، وهو يقول : « شاهت الوجوه . شاهت الوجوه » فأصابت وجوه المشركين ممن كتب عليهم القتل في علم الله ..

ولكن دلالة الآية أعم . فهي تمثل تدبير الله للأمر كله من وراء الحركة الظاهرة للنبي صلى الله عليه وسلم والعصبة المسلمة معه . ولذلك تلاها قول الله تعالى :

« وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا » ..

أي ليرزقهم من عنده أن يبلوا البلاء الحسن الذي ينالون عليه الأجر ، بعد أن يكتب لهم به النصر . فهو الفضل المضاعف أولا وأخيرا .

« إن الله سميع عليم » ..

يسمع استغاثتكم ويعلم حالكم ؛ ويجعلكم ستارا لقدرته ، متى علم منكم الخلوص له ؛ ويعطيكم النصر والأجر .. كما أعطاكم هذا وذاك في بدر ..

« ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين » ..

وهذه أخرى بعد تلك الأولى ! إن التدبير لا ينتهي عند أن يقتل لكم أعداءكم بأيديكم ، ويصيبهم برمية رسولكم ، ويمنحكم حسن البلاء ليأجركم عليه .. إنما هو يضيف إليه توهين كيد الكافرين ، وإضعاف تدبيرهم

وتقديرهم .. فلا مجال إذن للخوف ، ولا مجال إذن للهزيمة ، ولا مجال إذن لأن يولي المؤمنون الأدبار عند لقاء الكفار ..

ويتصل السياق هنا بكل ملابسات المعركة .. فإذا كان الله هو الذي قتل المشركين ، وهو الذي رماهم ، وهو الذي أبلى المؤمنين فيها ذلك البلاء الحسن ، وهو الذي أوهن كيد الكافرين .. فما النزاع والاختلاف إذن في الأنفال ، والمعركة كلها أديرت بتدبير الله وبتقديره ، وليس لهم فيها إلا أن كانوا ستارا لهذا التدبير والتقدير ؟ !

* * *

وعندما يصل السياق إلى تقرير .. أن الله موهن كيد الكافرين .. يتجه بالخطاب إلى الكافرين ، أولئك الذين استفتحوا قبيل المعركة ، فدعوا الله أن يجعل الدائرة على أضل الفريقين وآتاهما بما لا يُعرف وأقطعهما للرحم ـ كما كان دعاء أبي جهل وهو استفتاحه : أي طلبه الفتح من الله والفصل ـ فدارت الدائرة على المشركين ! .. يتوجه إليهم بالخطاب ، ساخرا من استفتاحهم ذاك ؛ مؤكدا لهم أن ما حدث في بدر إنما هو نموذج من السنة الجارية وليس فلتة عارضة ؛ وأن جموعهم وكثرتهم لن تغير من الأمر شيئا ؛ لأنها السنة الجارية : أن يكون الله مع المؤمنين :

« إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح . وإن تنتهوا فهو خير لكم . وإن تعودوا نعد ، ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت . وأن الله مع المؤمنين » ..

إن تستفتحوا فتطلبوا من الله أن يفتح بينكم وبين المسلمين ، وأن يهلك أضل الفريقين وأقطعهما للرحم .. فقد استجاب الله ، فجعل الدائرة عليكم ، تصديقا لاستفتاحكم ! لقد دارت الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم ! ولقد علمتم ـ إن كنتم تريدون أن تعلموا ـ من هم أضل الفريقين وأقطعهما للرحم !

وعلى ضوء هذه الحقيقة ، وفي ظل هذا الإيحاء ، يرغبهم في الانتهاء عما هم فيه من الشرك والكفر والحرب للمسلمين ، والمشاقة لله ورسوله :

« وإن تنتهوا فهو خير لكم » ..

ومع الترغيب الترهيب :

« وإن تعودوا نعد » ..

والعاقبة معروفة ، لا يغيرها تجمع ، ولا تبدلها كثرة :

« ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت » ..

وماذا تفعل الكثرة إذا كان الله في جانب المؤمنين ؟

« وأن الله مع المؤمنين » ..

إن المعركة على هذا النحو لن تكون متكافئة أبداً ؛ لأن المؤمنين ـ ومعهم الله ـ سيكونون في صف ؛ والكفار ـ وليس معهم إلا ناس من البشر من أمثالهم ـ سيكونون في الصف الآخر . والمعركة على هذا النحو مقررة المصير !

ولقد كان مشركو العرب يعرفون هذه الحقيقة . فإن معرفتهم بالله سبحانه لم تكن قليلة ولا سطحية ولا غامضة ؛ كما يتصور الناس اليوم من خلال تأثرهم ببعض التعميمات التاريخية . ولم يكن شرك العرب متمثلا في إنكار الله ـ سبحانه ـ ولا في عدم معرفتهم الحقيقة .. إنما كان يتمثل ، أكثر ما يتمثل ، في عدم إخلاصهم العبودية له ؛ وذلك بتلقي منهج حياتهم وشرائعهم من غيره ؛ وهو ما لم يكن متفقاً مع إقرارهم بألوهية الله ومعرفتهم لحقيقته ..

ولقد مر بنا في استعراض أحداث الموقعة من كتب السيرة : أن خفاف بن أيماء بن رحضة الغفاري ـ أو أبوه أيماء بن رحضة الغفاري ـ بعث إلى قريش ، حين مروا به ، ابنا له بجزائر أهداها لهم ؛ وقال لهم : إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا . قال : فأرسلوا إليه مع ابنه : أن وصلتك رحم ! قد قضيت الذي عليك . فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم . ولئن كنا إنما نقاتل الله ـ كما يزعم محمد ـ فما لأحد بالله من طاقة .

كذلك مر بنا قول الأخنس بن شريق لبني زهرة ـ وهو مشرك وهم مشركون ـ : يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرقة بن نوفل ... إلخ

ومثله استفتاح أبي جهل نفسه ـ فرعون هذه الأمة كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول : « اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف ، فأحنه الغداة » ..

وكذلك قوله لحكيم بن حزام وقد جاءه رسولا من عتبة بن ربيعة ليرجع عن القتال : « كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا بين محمد » !

فهكذا كان تصورهم للحقيقة الإلهية ، واستحضارهم لها في كل مناسبة . ولم يكن أمرهم أنهم لا يعرفون الله ؛ أو لا يعرفون أنه ما لأحد بالله من طاقة ، أو لا يعرفون أنه هو الذي يحكم ويفصل بين الجبهتين حيث لا راد لحكمه ! انما كان شركهم الحقيقي يتمثل ابتداء في تلقي منهج حياتهم وشرائعهم من غير الله ، الذي يعرفونه ويعترفون به على هذا النحو .. الأمر الذي يشاركهم فيه اليوم أقوام يظنون أنهم مسلمون ـ على دين محمد ـ كما كان المشركون يظنون أنهم مهتدون على دين أبيهم إبراهيم ! حتى لكان أبو جهل ـ وهو أبو جهل ـ يستفتح على الله فيقول : « اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف ـ وفي رواية : اللهم أضل الفريقين وأقطعهما للرحم ـ فأحنه الغداة » !

فأما تلك الأصنام التي عرف أنهم يعبدونها ، فما كان ذلك قط لاعتقادهم بألوهية لها كألوهية الله ـ سبحانه ـ ولقد صرح القرآن الكريم بحقيقة تصورهم الاعتقادي فيها وبسبب تقديمهم الشعائر لها في قوله تعالى : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .. فهذا كان مبلغ تصورهم لها .. مجرد شفعاء عند الله .. وما كان شركهم الحقيقي من هذه الجهة ؛ ولا كان إسلام من أسلم منهم متمثلا في مجرد التخلي عن الاستشفاع بهذه الأصنام . وإلا فإن الحنفاء ، الذي اعتزلوا عبادة الأصنام هذه وقدموا الشعائر لله وحده ما اعتبروا مسلمين ! إنما تمثل الإسلام في الاعتقاد والشعائر وإفراد الله سبحانه بالحاكمية . والذين لا يفردون الله سبحانه بالحاكمية ـ في أي زمان وفي أي مكان ـ هم مشركون . لا يخرجهم من هذا الشرك أن يكون اعتقادهم أن لا إله إلا الله ـ مجرد اعتقاد ـ ولا أن يقدموا الشعائر لله وحده .. فإلى هنا يكونون كالحنفاء الذين لم يعتبرهم أحد مسلمين ـ إنما يعتبر الناس مسلمين حين يتمون حلقات السلسلة ، أي حين يضمون إلى الاعتقاد والشعائر ، إفراد الله سبحانه بالحاكمية ، ورفضهم الاعتراف بشرعية حكم أو قانون أو وضع أو قيمة أو تقليد لم يصدر عن الله وحده .. وهذا وحده هو الإسلام ، لأنه وحده مدلول شهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؛ كما عرف هذا المدلول في الاعتقاد الإسلامي وفي الواقع الإسلامي سواء ! .. ثم أن يتجمع هؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله على هذا النحو وبهذا المدلول في تجمع حركي بقيادة مسلمة وينسلخوا من التجمع الجاهلي وقيادته الجاهلية !

وهذا ما ينبغي أن يتبينه الذين يريدون أن يكونوا « مسلمين » فلا تخدعهم عن حقيقة ما هم فيه خدعة أنهم

مسلمون اعتقادا وتعبداً . فإن هذا وحده لا يجعل الناس « مسلمين » ما لم يتحقق لهم أنهم يفردون الله سبحانه بالحاكمية ، ويرفضون حاكمية العبيد ، ويخلعون ولاءهم للمجتمع الجاهلي ولقيادته الجاهلية .

إن كثيرا من المخلصين الطيبين تخدعهم هذه الخدعة .. وهم يريدون لأنفسهم الإسلام ولكنهم يُخدعون عنه . فأولى لهم أن يستيقنوا صورة الإسلام الحقيقية .. والوحيدة .. وأن يعرفوا أن المشركين من العرب الذين يحملون اسم « المشركين » لم يكونوا يختلفون عنهم في شيء ! فلقد كانوا يعرفون الله بحقيقته ـ كما تبين ـ ويقدمون له شفعاء من أصنامهم . وكان شركهم الأساسي يتمثل ـ لا في الاعتقاد ـ ولكن في الحاكمية !

وإذا كان ينبغي للطيبين المخلصين الذين يريدون أن يكونوا مسلمين ، أن يتبينوا هذه الحقيقة ، فإن العصبة المسلمة التي تجاهد لإعادة نشأة هذا الدين في الأرض في عالم الواقع يجب أن تستيقن هذه الحقيقة بوضوح وعمق ؛ ويجب ألا تتلجلج فيها أي تلجلج ؛ ويجب أن تعرّف الناس بها تعريفا صريحا واضحا جازما .. فهذه هي نقطة البدء والانطلاق .. فإذا انحرفت الحركة عنها ـ منذ البدء ـ أدنى انحراف ضلت طريقها كله وبنت على غير أساس ؛ مهما توافرها من الإخلاص بعد ذلك والصبر والتصميم على المضي في الطريق !

* * *

ثم يعود السياق إلى الهتاف للذين آمنوا ـ في سلسلة متوالية من الهتافات الموحية ـ عقب ذكرهم : وذكر أن الله معهم .. يعود إليهم ليهتف بهم إلى طاعة الله ورسوله ؛ ويحذرهم التولي عنه ، والتشبه بأولئك الذين يسمعون آيات الله تتلى عليهم فكأنهم لم يسمعوها .. أولئك الصم البكم ، وإن كانت لهم آذان تسمع الأصوات وألسنة تنطق بالكلمات .. أولئك الذين هم شر الدواب التي تدب على هذه الأرض ؛ لأنهم لا يهتدون بما يسمعون :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا : سمعنا ، وهم لا يسمعون . إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » .

إن الهتاف هنا للذين آمنوا ليطيعوا الله ورسوله ، ولا يتولوا عنه وهم يسمعون آياته وكلماته .. إن هذا الهتاف هنا إنما يجيء بعد جميع مقدماته الموحية .. يجيء بعد استعراض أحداث المعركة ؛ وبعد رؤية يد الله فيها ، وتدبيره وتقديره ، وعونه ومدده ؛ وبعد توكيد أن الله مع المؤمنين ، وأن الله موهن كيد الكافرين . فما يبقى بعد ذلك كله مجال لغير السمع والطاعة لله والرسول . وإن التولي عن الرسول وأوامره بعد هذا كله ليبدو مستنكراً قبيحا لا يقدم عليه إنسان له قلب يتدبر وعقل يتفكر .. ومن هنا يجيء ذكر الدواب في موضعه المناسب ! ولفظ « الدواب » يشمل الناس فيما يشمل ، فهم يدبون على الأرض ، ولكن استعماله يكثر في الدواب من الأنعام ، فيلقي ظله بمجرد إطلاقه ؛ ويخلع على « الصم البكم الذين لا يعقلون » صورة البهيمة في الحس والخيال ! وإنهم لكذلك ! إنهم لدواب بهذا الظل . بل هم شر الدواب ! فالبهائم لها آذان ولكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمة ؛ ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتا مفهومة . إلا أن البهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية . أما هؤلاء الدواب فهم موكولون إلى إدراكهم الذي لا ينتفعون به . فهم شر الدواب قطعا !

« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » ..

« ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم » ..

أي لأسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم .. ولكنه ـ سبحانه ـ لم يعلم فيهم خيرا ولا رغبة في الهدى

فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقي والاستجابة ؛ فلم يفتح الله عليهم مما أغلقوا هم من قلوبهم ، وما أفسدوا هم من فطرتهم . ولوجعلهم الله يدركون بعقولهم حقيقة ما يدعون إليه ، مافتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا .. « ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون » ...

لأن العقل قد يدرك ، ولكن القلب المطموس لا يستجيب . فحتى لوأسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة . والاستجابة هي السماع الصحيح . وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب !

* * *

ومرة أخرى يتكرر الهتاف للذين آمنوا . الهتاف بهم ليستجيبوا لله والرسول ، مع الترغيب في الاستجابة والترهيب من الإعراض ؛ والتذكير بنعمة الله عليهم حين استجابوا لله وللرسول :

« يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه . وأنه إليه تحشرون . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب . واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » ..

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما يدعوهم إلى ما يحييهم .. إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة ، وبكل معاني الحياة ..

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة ، ومن ضغط الوهم والأسطورة ، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة ، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أوللشهوات سواء ..

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله ؛ تعلن تحرر « الإنسان » وتكريمه بصدورها عن الله وحده ، ووقوف البشركلهم صفا متساوين في مواجهتها ؛ لا يتحكم فرد في شعب ، ولا طبقة في أمة ، ولا جنس في جنس ، ولا قوم في قوم .. ولكنهم ينطلقون كلهم أحراراً متساوين في ظل شريعة صاحبها الله رب العباد .

ويدعوهم إلى منهج للحياة ، ومنهج للفكر ، ومنهج للتصور ؛ يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة ، المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان ، العليم بما خلق ؛ هذه الضوابط التي تصون الطاقة البانية من التبدد ؛ ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البناء .

ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم ، والثقة بدينهم وبربهم ، والانطلاق في « الأرض » كلها لتحرير « الإنسان » بجملته ؛ وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده ؛ وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله ، فاستلبها منه الطغاة !

ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله ، لتقرير ألوهية الله سبحانه ـ في الأرض وفي حياة الناس ؛ وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة ؛ ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله ـ سبحانه ـ وحاكميته وسلطانه ؛ حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده ؛ وعندئذ يكون الدين كله لله . حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة .

ذلك مجمل ما يدعوهم إليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة .

إن هذا الدين منهج حياة كاملة ، لا مجرد عقيدة مستسرة . منهج واقعي تنموالحياة في ظله وتترقى . ومن ثم